الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

وهذا مُحصَّلُ رواية « الطائشة » نقلناه من خطّ الكاتب على مَساقِ مادوَّنه في أوراقه ، وعلى سَرْدِهِ الذى قصَّ به الخبَر . وقد أعطانا من البرهان ما نطمئنُّ اليه أن هذه « الطائشةَ » هى من تأليف الحياة لا من تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يأتفِكْ حديثاً ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم يَنقُصْها بمَعَرَّة ؛ وأشهَدَ على قوله كُتُبَ صاحبته الأديبة المُستهترة التى لا تبالى ما قالت ولا ما قيل فيها . وهذه الكتبُ رسائلُ منها المُوجَزُ ومنها المستفيضُ ، وهى بجملتها تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنَّنة ، وتنزلُ الروايةُ منها منزلةَ المتن المقتضبة ؛ وكل ذلك يُشبه بعضُه بعضاً ، فكلُّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض

قال كاتب (الطائشة) :

كنتُ رجلاً غَزِلاً ولم أكن فاسقاً ، ولستُ كهؤلاء الشبّان الذين أصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقّقون المدنيّةَ فحقّقوا كلَّ شيء إلا المدنية

ترى أحدَهم شريفاً يأنَفُ أن يكون لصّاً وأن يسمى لصّاً ، ثم لا يعملُ إلا عملَ اللص فى استلاب العفاف وسرقةِ الفتيات من تاريخهنّ . وتراه نَجْداً يستنكِفُ أن يكون فى أوصاف قاطع الطريق ، ثم لا يأبى إلا أن يقطعَ الطريق فى حياة العَذارى وشرف النساء

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يَعرضون للفتيات المتعلمات بوجوه مصقولةٍ تحتملُ شيئين : الحب والصَّفع . . . ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضمَنّ القُبلةَ فى مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّلَ الغريزةَ التى فيهن فعادت بقايا لا تستمسك ، وبصَّرهنَّ بأشياءَ تزيد قوةَ الحياة فيهن خطَراً وتُوحى اليهنّ وحياً من حيث يشعُرْنَ ولا يشعرن ، وصوَّر فى أوهامهنّ صُوَراً محتْ الصُّوَرَ التى كانت فى عقائدهن ، وأخرجهنّ من السَّلْب الطبيعى الذى حماهنّ الله به ؛ فلهنّ العفةُ والحياءُ ولكن ليس لهن ذلك العقلُ الغريزيُّ الذى يجيء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتٌ منهن يخشَيْن العارَ ويمقُتْنَهُ الاجتماعيّة ولكن خشيةَ فُقهاءِ الحِيَل الشرعيـة قد أرْصَدوا لكل وجهٍ من التحريم وجهاً من التحليل ، فأصبح امتناعُ الإثم هو ألا تكونَ اليه حاجة . . . .

والعقلُ الذى به التفكيرُ يكون أحياناً غيرَ العقل الذى به العمل ؛ ففى بعض الجاهلات يكونُ عقلُ الحياء والعفة والشرف والدين — غريزةً كغرائز الوحش ، هى الفكرة وهى العملُ جميعاً ، وهى أبداً الفكرةُ والعملُ جميعاً لا تتغير ولا تتبدّل ولا يقع فيها التنقيحُ الشعريُّ ولا الفلسفى . . . . وما غريزةُ الوحش إلا إيمانُه بمن خلقه وحْشاً ؛ وكذلك غريزة الشرف فى الأنثى هى عندى حقيقةُ إيمانها بمن خلقها أنثى

وشرفُ المرأة رأسُ مالِ للمرأة ، ومن ذلك كان له فى أوهام العلم اشتراكيةٌ بحسَبِه تنظر فيه نظرَها وتَزيغُ زَيغَها وتقضى حكمها ، وأكثر من عرفتُ من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوا بطبيعتهم العلميةِ الى الرضى بهذه الاشتراكية ، والى التسامح فى كثير ، والى وضع الاعتذار فيما لا يقبلُ عُذراً ، ومن ها هنا كان بعضُ الجاهلات كالحِصْن المُغلَقِ فى قمّة الجبل الوَعْر ، وكان بعض المتعلمات دون الحِصن ، ودون القمّة ، ودون الجبل ، حتى تنزلَ الى السهْل فتراهنّ ثمّة

لقد غفلَت الحكوماتُ عن معنى الدين وحقيقته ، فلو عرفت لعرفتْ أن الانسانيةَ لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما ؛ فان فى الرجل إنساناً عاماً ونوعاً خاصّاً مذكراً ، وفى المرأة إنسانٌ عامٌ كذلك ونوع خاصٌ مؤنث . والدين وحده هو الذى يُصلح النوع بتحقيق الفضيلة وتقرير الثابة الأخلاقية ، وهو الذى يُحاجزُ بين الغريزتين ، وهو الذى يضع القوة الروحية فى طبيعة المتعلم ؛ فان كانت طبيعـةُ التعليم قويةً كانت الروحية زيادة فى القوة ، وإن كانت ضعيفةً كما هى الحالُ فى هذه المدنيّة لم تجمع على المتعلم ضعفين يَبتَلى كلاهما الآخر ويزيده

* * *

فلانٌ وفلانٌ تعلّقا فتاتين جاهلةً ومتعلمة ؛ وكلتاهما قد صدّت صاحبَها وامتنعت منه ؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانٌ) إنها كالوحْش وإن صُدودَها ليس صدوداً حَسْبُ ، بل هو

ثورةٌ من فضيلتها وإيمانها ، فيها المعنى الحربيُّ مجاهداً مُتحفِّزاً للقتل . . . .

وأما المتعلمةُ فيقول (فلانُها) إنها ككل امرأة وإن صدودها ثورةٌ ولكن من دلالها تُرضى بها أولَ ما تُرضى وآخرَ ما تُرضى كبرياءَ الجمال فيها لا الايمانَ ولا الفضيلة . فكأنها إيحاءٌ للطامع أن يزيدَ طمعاً أو يزيد احتيالاً

وفلانٌ هذا يقول لى : إن ضُعَفاءَ الايمان من الشبان المتعلمين — وأكثرهم ضعفاءُ الايمان — لو حقَّقتَ أمرهم وَبَلَوْتَ سرائرَهم ، لتبيَّنتَ أنهم جميعاً لا يرون قلبَ الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كُتب عليها : (للايجار) ..

* * *

يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا فقد صحَّ عندى أن سياسة أكثر المتعلمات هى سياسةُ فتح العين حَذَراً من الشبان جميعاً ؛ وإغماضِ العين لواحد فقط . . . .

وهذا الواحدُ هو البلاءُ كلُّه على الفتاة فانها بطبيعتها تتقيَّد ولا تنفصل إلا مُكْرَهَة ، وهو بطبيعته قيدُه لذته فيتصل وينفصل . غير أنها لابد لها من هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحى إليها بالحياة لا يجعلُ فى ذلك موضعاً للتنكير عندها ، والحياةُ نصفُ معانيها النفسية فى الصديق ؛ فالأنوثةُ بغيره مظلمةٌ فى حياتها راكدةٌ فى طباعها ثقيلةٌ على نفسها ما دام « الشعاعُ » لا يلمسها . .

والدينُ يأبى أن يكون ذلك الصديقُ إلا الزوجَ فى شروطه وعهوده كيلا تتقيدَ المرأةُ إلا بمن يتقيدُ بها ، والعلم لا يأبى أن يكون الصديقُ هو الحب ؛ والفنُّ يوجب أن يكون هو الحب ، وليس فى الحب شروطٌ ولا عهود إلا وسائلَ تُختَلَقُ لوقتها وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة . ولفظُ الحب نفسُه لصٌّ لُغَوىٌّ خبيثٌ يَسرقُ المعانى التى ليست له ويُنفِقُ مما يسرق . وليس من امرأةٍ يختدعُها عاشقٌ إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص

* * *

يقول كاتب « الطائشة » :

تلك فلسفةٌ لا بد منها فى التوطئةِ للكتابة عن (عزيزتى رغم أنفى) . ومَن كانت مثلها فى أفكارها واستدلالها وحُججِها وطريقتها — كان خليقاً بمن يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مُسلَّحة . .

لقد تَكارَهْتُ على بعض ما أرادت منى ما دام الحبُّ (رغم أنفى) ، وما دامت السياسةُ أن أُداريَها وأتَّبعَ محبتها ؛ غير أنى صارحتُها بكلمةٍ شمسيةٍ تلمع تحت الشمس ؛ أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنما هو اللهوُ البرىء لا غيرُه ، وأن ذلك جُهدُ ما أنا قويٌّ عليه وَفيٌّ به . قالت : فليكن ، ولكن صداقةٌ أعلى قليلاً من الصداقة . . . ولو من هذا الحب المتكبر الذى لا يَصدُق كيلا يكذب . . . إن هذا النوعَ من الحب يطيش بعقل المرأة ولكنه هو أول ما يَستهيمُها ويُعجبُها ويورثها التياعَ الحنين

* * *

كتبت لى : أنا لا أتألم فى هواك بالألم ، ولكن بأشياءَ منك أقلها الألم ، ولا أحزنُ بالحزن ، ولكن بهموم بعضها الحزن

إنك صنعتَ لى بكاءً ودموعاً وتنهدات ، وجعلت لى ظلاماً منك ونوراً منك ، يانهارى وليلى . تُرى ما اسمُ هذا النوع من الصداقة ؟

اسمه الحب ؟ لا

اسمه الكبرياء ؟ لا

اسمه الحنان ؟ لا

اسمه حُبك أنت ، أنت أيها الغامضُ المتقلب . ألا ترى ألفاظى تبكى ، ألا تسمعُ قلبى يصرخ ، بأىِّ عدْلٍ أو بأىِّ عدلِ الناسُ تريد أن أحيا فى عالم شمسُه باردة . . . . هذا قتل ، هذا قتل

فكتبتُ اليها : إن لم يكن هذا جنوناً إنه لقريبٌ منه

فردتْ على هذه الرسالة :

أتكاتبنى بأسلوب التلغراف . . . . لو أهديتَ الى عِقْدا من الزمرد حبَّاته بعدد هذه الكلمات لكنت بخيلاً ، فكيف وهى ألفاظ ؟ إنى لأبكى فى غَمْضَةٍ واحدة بدموعٍ أكثر عددا من كلماتك ، وهى دموعٌ من آلامى وأحزانى ؛ وتلك ألفاظٌ من لهوك وعَبَثك

ما كان ضرَّك لو كتبتَ لى بضعة أسطر من تلغرافات

روتر ... مادمت تسخر مني ؟ أأنت الشبابُ وأنا الكهولة ، فليس لك بالطبيعة إلا الانصرافُ عني ، وليس لي بالطبيعة إلا الحنين إليك ؟

* * *

لا أدري كيف أحببتها ولا كيف دعتني إليها نفسي ، ولكن الذي أعلمه أني تخادعتُ لها وقلتُ إن المستحيل هو منعُ هذا الشر ، والممكن هو تخفيفه ؛ ثم أقبلتُ أرثي لها ، وأخففُ عنها ، وأقبلتْ هي تضاعفُ لي مكرها وخديعتها ، وكان الأمر بيننا كما قالت : في الحب والحرب لا يكون الهجومُ هجوماً وفيه رفقٌ أو تراجُع

إن المرأة وحدها هي التي تعرف كيف تُقاتلُ بالصبر والأناة ؛ ولا يُشبهُها في ذلك إلا دُهاةُ المستبدين

* * *

سألتني أن أهدي إليها رسمي ؛ فاعتللتُ عليها بأن قلت لها : إن هذا الرسم سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب ، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم مُتهم

وظنتني أبلغتُ في الحجة وقطعتُها عني ؛ فجاءتني من الغد بإرد المفحم ، جاءتني بإحدى صديقاتها لتظهرَ في الرسم الى جانبي كأنني من ذوي قرابتها . . . . فيكون الرسم رسم صديقتها ، ويكون مهدًى منها لامني ، وكأنني فيه حاشيةٌ جاءت من عمة أو خالة . . . .

وأصررتُ على الاباء ، ونافرتني القول في ذلك ، تردُّ عليَّ وأرد عليها ، وتناصينا وانكسرت حزناً وذهبتْ باكية ؛ ثم تسببتْ الى رضاي فرضيت

* * *

حدثتني أن صديقتها فلانة استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً في مخدعها في دارها بين أهلها منتصف الليل . قلتُ وكيف كان ذلك ؟

قالت إنها تحمل شهادة . . . . وهي تلتمس عملاً وقد طال عليها ؛ فزعمتْ لذويها أنها عثرت في كتاب كذا على رُقيةٍ من رُقى السحر ، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا محق القمر ؛ وأنها ستُطلق البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تُهمهمُ بالأسماء والكلمات

ثم إنها اتّعدتْ وصاحبها ليوم وأجافتْ بابَ دارها ولم تُغلقه ، وأطلقت البخور في مجمرٍ كبير أثار عاصفةً من الدخان المعطّر وجعل مخدعها كمخدع عروسٍ من ملكات التاريخ القديم . وبقي صاحبُها تحت الضبابة يُهمهمُ وتُهمهم . . ثم خرج في أغباش السحر

هكذا قالت ؛ وما أدري أهو خبر عن تلك الصديقة وفلانها أم هو اقتراحٌ عليَّ أنا من « فلانة » لأكون لها عفريت الضبابة . . . ؟

* * *

لم يخفَ عليها أن لذعةَ حبها وقعت في قلبي ، وأن صبرها قد غلب كبريائي ، وأن كثرة التلاقي بين رجل وامرأة يطمعُ أحدهما في الآخر — لابد أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثاني ، ويجعل في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السياق . . . . والحاحُ امرأة على رجل قد خلبها وجفا عن صلتها ، إنما هو تعرُّضها للتعقيد الذي في طبيعته الانسانية . فان هي صابرتهُ وأمعنتْ فقلما يدعها هذا التعقيدُ من حلٍّ لمعضلتها . وبمثل هذه العجيبة كان تعقيداً وكان غير مفهوم ولا واضح ؛ وقد ينقلبُ فيه أشدُّ البغض إلى أشد الحب وقد تعمل فيه حالةٌ من حالات النفس مالا يعمل السحر . وكذلك يقعُ للرجل إذا أحب المرأة فنبتْ عن مودته فعرض للتعقيد الذي في طبيعتها وأمعنَ وثبت

رأت الجمرة الأولى في قلبي فاضرمتْ فيه الثانيةَ حين جاءتني اليومَ بكتاب زعمتْ أن فلاناً أرسله إليها يُطارحُها الهوى ويبثُّها ولَهَ الحنين والتياعَ الحب

ويقول لها في هذا الكتاب : أنا لم أشرب خمراً قط ولكني لا أراني أنظر إلى مفاتنك ومحاسنك إلا وفي عينيَّ الخمر ، وفي عقلي السُّكر ، وفي قلبي العربدة . جعلتِ لي نظرةَ سكيرٍ فيها نسيانُ الدنيا وما في الدنيا ما عدا الزجاجة . . .

ويختمه بهذه العبارة :

آه لو استطعتُ أن أجعل كلامي في نفسك ناعماً ، ساحراً ، مُسكراً ، مثلَ كلام الشفة للشفة حين تُقبِّلها . . .

عند هذا وقع الشيء المنتظَر في الفصل الثاني من الرواية ، وختم هذا الفصلُ بأول قُبلة على شفتي (الممثلة)

* * *

قالت : هذه القبلة كانت (غلطة مطبعية) ومضت تسميها كذلك واستمرت الطبيعة تغلط . . . . وما علمتُ إلا من بَعْدُ أن ذلك الكتابَ الذي استَوقدتْ به غيرتي ، إنما كان من عملها ومكرها

* * *

وجاءتني اليوم بآبدَةٍ من أوابدها ، قالت :

أنت رَجعيٌّ محافظ على التقاليد . قلتُ لأني أرى هذه التقاليد كالصباح الذي يتكرر في كل يوم وهو في كل يوم ضياء ونور

قالت : أوكالمساء الذي يتكرر وهو في كل يوم ظلامٌ وسواد

قلت : ليس هذا إليَّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياة اليوم علمية أوربية ، والزمنُ حثيثٌ في تقدمه ، وأصحابُ « التقاليد » جامدون في موضعهم قد فاتهم الزمن ، ولذلك يسمونهم (متأخرين) . أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت في أوربا زياً قديماً فأخذ المِقَصُّ يعملُ في تهذيبها ، يقطعُ من هنا ويَشُقُّ من هنا . . .

اسمع أيها « المتأخر » وتأمل هذا الرهان الأوربي المصري

أخبرتني صديقتي فلانة حاملة شهادة . . . . أنها كانت في القطار بين الاسكندرية والقاهرة وكانت معها فتاة من جيرتها تحملُ الشهادة الابتدائية ؛ فجمعهما السفَر بشاب وَسيم ظريف يُشاركُ في الأدب ، غير أنه رَجْعيٌّ (متأخر) . وصديقتي تعرفُ من كل شيء شيئاً ، وتأخذُ من كل فن بطَرَف ؛ فجرى الحديثُ بينهما مجراه ، وتركت الصديقةُ نفسها لدواعيها وانطلقت على سَجيّتها الظريفة ، ووضعتْ فنّ لسانها في الكلام فجاءت فيه روحَ التقبيل

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعت من نفسه ودفعته إلى الزمن الذي هو فيه . فلما همَّت بوداعه سألها : أين تذهبان ؟

فأغضت صاحبة الشهادة الابتدائية ، وأطرقت حياء ورأت في السؤال تهمة وريبة ، فأنبتها الصديقةُ وأيقظتها من حيائها ، وقالت لها : ألا تزالين شرقية متأخرة . إن لم يسعدنا الحظ أن تكون لنا حريةُ المرأة الأوربية في المجتمع وفي أنفسنا ؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو في أنفسنا ؟

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها ، فأطمعه ردُّها فسألها أن تتنزه معه في بعض الحدائق ، فأبت صاحبته الابتدائية ولجت عمايَتها الشرقيةُ المتأخرة ، ورأت في ذلك مَسقطةً لها ، فلوَتْ إلى دارها وتركتهما إنساناً وإنساناً لافتىً وفتاة ، وتنزَّها معاً ، وعرف الشابُّ الرجعيُّ الحبَّ والخمرَ التي هي تحيةُ الحب

ولم تستطع الفتاةُ الماكرة أن ترجعَ الى دارها وهي سكرى فأوتْ الى فندق ، وختمت روايتهما باعراض من الشاب أجابت هي عليه بقولها : ألا زلت (متأخراً) . . . . ؟

قالت « الطائشة » :

نعم يا عزيزي (للمتأخر) إن مذهب المرأة الحرة . . . . في الفرق بين الزوج وغير الزوج ، أن الأولَ رجلٌ ثابتٌ ، والآخر رجلٌ طارئٌ . والثابتُ ثابتٌ معها بحقه هو ؛ والطارئُ طارئٌ عليها بحقها هي . . . . فإن كانت حرة فلها حقها . . .

قال كاتب الطائشة : وهنا كاد الشيطان يرفع الستار عن فصل ثالث في هذه الرواية ، رواية (الطائشة) . . .

* * *

تقول نحن : وإلى هنا ينتهي نصف الرواية ؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها : (الطائش والطائشة) ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الرسالة في الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهري بأربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً